

الأدب في نهضتنا الحديثة

بقلم محمد هاشم عطية الأستاذ بدار العلوم

أدرك الناس زمان بعد نكبة ابن المعتز كانوا يتطيرون فيه من اسم الأدب ويحسبون المشتغلين به من أهل البطالة المقطوعين عن الاكتساب ويخشون أن تدركهم كما أدركته حرفة الأدب حتى أظننا هذا العصر الذي تنبّهت فيه الشعوب لآحياء العلوم ، وفطنت لما نهض به الأدب من النتائج البليغة أبان تحول الأمم في وثباتها القديمة ، فأنشأت المكاتب العامة وأقامت الدور للمحاضرة والخطابة ، فأقبل الناس من الطبقات المختلفة على اصطناع الأدب واتخاذها كما كان وسيلة إلى المنزلة وتحصيل الحظ من الحياة . وما كنت تطمع قبل ذلك أن ترى في مصر هذه الكثرة الغامرة من أندية الأدب ومن أسماء المتأديين من الكتاب والشعراء ، ولا ما تغص به من الرسائل والدواوين ، حتى ليخيل إليك أنه أصبح شأنًا من الشؤون الضرورية للناس يعنون به كما يعنى التجار بالأسعار والصناع بالأسواق ، وأصبحت كبريات الصحف تجرد له الأبواب ، وتنشئ فيه الفصول الطوال ، وجاز لك حينئذ أن تتفاءل بأنه إن شاء الله صائر على هذا النمط من النشاط المطرد إلى أرقى ما سمت إليه البلاغة العربية في عصورها الزاهرة .

ولكنك عند التفقد والمراجعة ، وعند القعود للاعتراض والنقد ستقول : ينبغي للعاقل ألا يتخذ هذه الكثرة من الكتاب ، والشعراء ولا أن تغره هذه الجهرة من الدواوين والكتب ، وإن يعلم أن الرجاء ليس بكثرة الأعوان ، ولا في شدة الضجيج ، بل قد تكون هذه الجهارة

مظنة الحرمان والفشل كما دلت عليه التجربة في كثير من الحالات . لأنك حين تقرأ هذا الباب من الصحف ، أو حين تظالعه في كتاب أو ديوان من هذه الدواوين ، ستجد في كثير منها ما يسمونه من قبل أنفسهم « دراسة فنية عميقة » من شاعر لشاعر أو من بعضهم لبعض تشعر عند قراءتها كأنك تقرأ قصة خيالية ، أو أسطورة قديمة . فالشاعر في هذه الدراسة هو وحده الذي هبطت عليه الحكمة وألهمته الحياة معاني الجمال . وأنه يتسامى في عبقريته عن العقول ويجل عن قوانين اللغات ، وقد يرى من الهجنة لأدبه أن يخضعه لقاعدة أو يشينه بالاستسلام لأحكام لغة من اللغات ، والشاعر أو صاحب الديوان مغتبط بهذا الاطراء الذي يعصمه من كل زلل ، ويعفيه من كل نقص ، راض عن أدبه وعن نفسه ، مقتنع بأنه أصاب المفصل وبلغ إلى الغاية وأن من يحسب شيئاً من أدبه ركيكاً أو قولاً خطأ فأنما أتاه ذلك من قبل فسولته وفساد قياسه واختلاف تركيبه . وتزداد عندك هذه الريبة حين تجد انكف الشديدي من بعضهم لبعض بتقارض الثناء والعمل على إقامة التكرمات واستحضار الجوع لشهود النبوغ ولتقرير العبقریات والاعتراف لهم بالغلب والتقدم ، ويعقدون الفصول في الموازنة بين جماعة منهم يسمونهم « الشعراء الثلاثة » ، كان الأمر قد استقر والنزاع انقطع على أن هؤلاء هم ثلاثة الشعراء كثرلثالثات الفحول من طبقة جرير والفرزدق والأخطل في صدر الاسلام وأبي تمام والبحترى والمتنبى في الدولة العباسية وشوقي وحافظ و خليل في عصرنا هذا وهو بعض ما تعانيه من أملائهم على الناس وتحكمهم في مذاهب المنقطعين لخدمة هذه الصناعة من المطبوعين ولا يوجد مثل هذا النوع من النقد في أمة من الأمم ولا في عصر من عصور الأدب ولا حظي به حقير ولا جليل من شعراء العالم . ومن شأن هذا النقد أنه لا يحمل على

تنقير ولا تتبع ولا يبعث على استكمال في صناعة ولا تهذيب لمذهب .
 فتركه به القرائح ولا تشرئب الهمم إلى الانتقال من حال إلى حال
 وقد يحمل ذلك على القول بأن من بين أدباء هذا العصر من ليس له
 طبع ولا فيه مرهبة ولا ذوق ، وله ولوع بالشهرة ، وقد يكون من أهل
 صناعة أخرى أقعدته قلة التمر فيها عن شفاء هذه الشهوة من الميل إلى
 نباهة الصيت وظهور الأمر فيدخل إلى حلبة الأدب وليس عليها رقيب
 ولا لها حاجب ولا هي بما يمس مصالح الناس التي يتبين فيها الصحيح من
 الفاسد ، والأصيل من الدخيل ، والدعى في كل صناعة إلا صناعة القلم ،
 نصب المسألة ورهن الاختبار وهو فوق ذلك عرضة لطائلة العقاب ،
 وكساد السوق ، والتوارى عن الأبصار . وإن كنا لا نقول بحرمان أهل
 الصناعات العلمية من ذوق الأدب رغم ما يكسبه مراسها من ثقافات مجانبة
 في الجملة لطبائع المتأدين . فربما سلم الذوق الأدبي في الطبيب أو المهندس
 مثلاً من عيب العصية ومن تأثير الصناعة ، فيكون حينئذ ميزاناً للنقد
 وعياراً على الأدب ويكون صاحبه أديباً مطبوعاً ، وراوية ثقة ، ومنشئاً
 للمنخول المذهب من الكلام . وربما جرت هذه الحال عند تفاقمها إلى
 استكراه الناس للأدب ، واستثقالهم لأهله ، واعتبارهم كأهل الحرف
 البغيضة التي لا يعالجها العلية من الناس : نقول هذا ونحن لا نرى مع ذلك
 أن تتشائم إلى هذا الحد إذ لا تخلو كل نهضة من أن يتخللها مثل هذه الحال
 من الاضطراب والفوضى ثم تسكن الثائرة ويستقر الأمر وتعود العقول
 إلى الإنتاج النافع في ظل الاستقرار والدعة ، وذلك ما يتوقعه المحبون
 للغة والأدب من هذه النهضة الحاضرة فأن من بين شعرائها وأدبائها من
 يصح أن يناط بهم الأمل ويعقد عليهم الرجاء وسنشير إلى ذلك عند
 مانع من بعض ما وقفنا عليه في كتبهم ودواوين أشعارهم الحديثة من

جيدها ورديتها لتعلم أن الأليق بنا أن نقف من هذه الحالة موقفاً وسطاً بل أن نكون أميل إلى جانب الرجاء وأن يتغلب عندنا الطمع فيما عندهم من ذخائر القرائح في المستقبل إن شاء الله .

وأول ما يلاحظ في هذه الدواوين بوجه عام ذلك التنوع الظاهر في اختيار الأسماء واجتلاب الألقاب للدواوين والأشعار فسترى فيها «أطياf الربيع» و «الألحان الضائعة» و «الشفق الباكي» و «الذبوع» و «والأعشاب» و «وراء الغمام» وتجد بين أسماء المقطوعات والقصائد مثلاً : «اللهفة الخالدة» و «زهر الحب» و «الحزن الوديع» و «أنشودة الهاجر» و «حلم العذارى» و «البسمة الحزينة» وهي ترجمة لبعض ما يترامون عليه ويدعون دراسته والمعرفة برجاله من الأدب الأجنبي مما يصح أن يشعرك أيضاً باتهامهم لأدبهم حتى احتاجوا إلى تزيينه بمثل هذه الكلمات المجلوبة والألقاب المموهة . ولعل ذلك هو التجديد عندهم كما أنك حين تقدر على عكس الأمور ونقض طبائع الأشياء تدعى في مدرستهم الحديثة من المجددين كالذى يقول :

بك خف الجناح يا أيها الطير وما كنت بالجناح تخف

فالدعوى بأن الطائر لا يخف بجناحه مناقضة لقول خالق الخلق والطير في كتابه العزيز «وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحه إلا أمم أمثالكم» ولو كانت الغنقاء مقصورة الذنب أو متوفة ريش الجناح وهمت بالطيران لعرفت أنها أضيق من ذلك ولكانت كالذى ينتصر بالعجز ويستعين - أعاذك الله - بالخذلان

وشئ آخر وهو رغبة أولئك الشبان من أنصار المدرسة الحديثة في الظهور أحياناً بزى النساك الراغبين عن زخرف هذه الحياة الدنيا وأحياناً بمظهر كبار الفلاسفة الناظرين في أعماق الأمور فيضطربون في القول

ويرتكون في العبارة . وإليك بعض ما لقيناه في هذه الكتب والله يعلم
براءتنا من التحامل وكراحتنا لموضع النقد إذا كان عصياً لعصر على عصر
أو لتقديم على جديد قال في الذبوع بعنوان « عيون المنصورة » والظاهر
أنه يقصد أهل مدينة المنصورة فيما يوصفون به من حلاوة أعينهم وجمال
أشعارهم وألوانهم :

عيون كلها فتن وأصداء من الفتن
أحن لسمرة فيها كسمره مائها الفنى

فذكر كلمة أصداء بعد قوله كلها فتن لاقيمة له . والمعروف أن يترق القائل
في المدح من الأهون إلى الأقوى لا العكس . وماهى أصداء الفتن المضافة
إلى العيون على فرض صحة وضعها هنا؟ أما سمرة العين وسمرة مائها وفنيته
فهما لم يسبق به القائل . ولقد قطع العلماء من السلف عذر المتأخرين
بتنبيههم على رداءة مثل هذا الكلام حين عابوا قول الأول (على وضوح
الفرق بين الكلامين)

أيا تملك يا تمل وذات الطوق والحجل
ذرينى وذرى عدلى فأرب العذل كالقتل

ومن ذلك عنوان « زهر الحب » وفيه صورة امرأة مجردة على بطنها
وصدرها رسم زهرات يظهر أنها المقصودة بهذا العنوان ولها يقول :

عرضت لنا تقاسيم الجمال وأشعاع الحقيقة والخيال
تلاًلاً بالهوى القدسى بينا تدفق بالتجاوب لا يتهاى

فالبيت الأول كلام منظوم قد تفهمه مع عنف ومشقة أما البيت الثانى
ففيه استعمال بينا فى الحشو وما عدا ذلك فغير مفهوم ثم « أنشودة الهاجر »

يا حبيبي كفى بعادك كفى صيامى على هواك
وهل فؤاد له فؤادك سوى فؤادى الذى اقتداك

ولو أن هذا الكلام قد احتمل معنى صحيحا لما عدل ما فيه من رداءة
النسيج كما هو ظاهر . وفي هذا الديوان عنوانات أخرى كالبحر الصغير ،
وصومعتي ، والفراشة وما أشبه ذلك مما لا يخلو من سقط وبعضه مستقيم
حسن . وفي أطراف الربيع عنوان منكر قبيح هو « الآله المتكر » فبعد
آيات منها :

هذي الآلوهة أشرقت وتكرت فبدت لنا في صورة الحسناء
يقول :

حتى الآله يرى التكر واجبا في هذه الدنيا أمام الناس
ولا أدري لهذا الكلام غرضا ولا معنى فضلا عما يحويه من سوء
التعبير وسماجة الوضع والتهم بمثل هذا الكلام على لفظ الجلالة
كما ترى .

أما وراء الغمام فيعجبني أن أقر لصاحبه بالطبع السليم والديساجة
الواضحة وأكاد لا أعثر له إلا في مواضع قليلة على سقط أو ردىء
ومن لطيف ما جاد له قوله :

شكا أسره في حبال الهوى وود على الله أن يعتقا
فلما قضى الله فك الأسير حنَّ إلى أسرد مطلقا
وفي الديوان قضى الحظ مكان قضىاته وهذه عندنا أليق ومن رقيق
كلامه الذي يصح أن يتغنى به . قوله :

يا حبيبي هدا الليل ولم يسهر سوانا
لا الدجى ضمد جرحينا ولا الصبح شفانا
لا الهوى رق على الشاكي ولا قاسيه لانا
ولو جعل هذا البيت « والهوى مارق للشاكي ولا قاسيه لانا »
لكان أحسن من هذا الفصل غير أن مما يؤخذ عليه قوله من قصيدة :

كم زفرة في الضلوع قرت يحوطها هيكل مريض
مبيدة حيثما استقرت فإن تبسح سميت قريض
هكذا بقافية مرفوعة أو ساكنة على الأكثر وتعتبر الثانية على هذا
لحنا وليست من ضرورات الشعر

ومثل ذلك أيضاً قوله من قصيدة هيكل الحسن أو الحب :
يا هيكل الحسن المبارك ركنه الساحر النور الطاهر رحاب
بالكسر وفيه اضافة الصفة بأل إلى المجرد منها وهو ممنوع قطعاً .
أما ديوان الاعشاب ففيه عدة قصائد جيدة تدل على موهبة يوشك
أن يكون لها ثمرات ناضجة قوية غير أن مما يؤخذ عليه قوله في
« آه يا يوم اللقاء » ليتنى كنت إلها
إذ لم يجر العرف الأدبي بأن تكون الألوهية من أمانى الشعراء وكل
ذلك ليجعل يوم اللقاء طويلاً لا يضاهاى والاعتبار وحده كاف في
تصحيح هذه الظلمة .

ثم قوله في « حلم العذارى » قال :
— اسمحى لى الآن أن أسأل فيما تفكرين .

وهى كما ترى عبارة بلدية

وبعد أبيات منها يتبين أن العذراء إنما تحلم بالعناق وما ليس إلى
التصریح به ها هنا سبيل ، وهو مع كونه معنى طبيعياً مسلماً لا حاجة بالشاعر
أن يتناوله .

وكذلك تجده في « رسالة الكوخ » إذ جعل صاحب الكوخ قواداً
وهو بوضعه لصاحبه في كوخ قواد ، قد ألبسها ربة من حيث لا يشعر
تضع من نفاستها وتجعلها مواجرة ولكنه حين يعود إلى النظر في البيئة
المصرية ويتكلم في الوساطة والرشوة يقع له من لطف الإشارة وملاحظة

النادرة بقدر ما عرف عن الشعراء المصريين من دعاية ودقة كقوله تحت
عنوان « كفاية » .

قالوا فلان ترقى من غير أدنى كفاية
فقلت لا تظلموه فكم له من وشاية
وأخرى يقول فيها :

رقيق فيه برهان صريح على الخلق الموصل للترقى
فانك طاعة عمياء تمشى بنحو للرئيس وغير حق
كأنك لم تكن يوما بحر فيالك بيننا عنوان رق

ذلك ولم نرد التعرض لغير هذه الدواوين التي استشهدنا ببعض ما فيها
لأنها في نظرنا ليست بشيء ، وربما كانت لنا كلمة في التأليف والكتابة
والكتاب في فرصة تالية وأتينا نرجو الله أن يمد أدباءنا وشعراءنا بروح
الرغبة في العمل الصالح فيعودوا بفضل ثقافتهم على هذه الثمرات الباكرة
فيصنعوا بها ما كان يصنعه أسلافهم في العصور الماضية يسقطون من
حسابها ما لا يستقيم ويضيفون إليها ما يتجدد به الزمن من فيض الخواطر
فيضمون بذلك ثروة إلى ثروة وأدبا إلى أدب والله ولى التوفيق ؟

